محمد الأمين شيخة
جامعة الوادي

الخطاب الأدبي المعاصر بين مقومات اللغة ومحفزات الأسلوب

ملخص

يناقش هذا المقال الأسس اللغوية والمعرفية للخطاب الأدبي المعاصر في ظل مقومات اللغة الموظفة بشتى مستوياتها الفنية, ومعطى الأسلوب والأسس الجمالية التي تتعالق معه لتسهم في إثراء الخطاب الأدبي , كما يطرق المعالم الفكرية والتوجهات النقدية المسلطة على هذا الميدان الفني الإبداعي من لدن أشهر أعلام التيارات النقدية، ومدى إسهامها في تفعيله وتجديد وسائله , وآلياته مما يساعد الناقد الأدبي في إبراز طاقاته المهارية، والمعرفية ، والذاتية ، ويحاول بيان أثر العلوم اللغوية المعيارية, وكذا التوجهات النقدية في منهج وطبيعة هذا البحث، للانتقال به من طور الحكم والتفسير إلى الوصف والتقييم .

Abstract

This critical essay refer the rules, and relations between " style" and language in literary discourses ,or texts with the anthers thematic arts like: grammar ,descriptive rhetoric,…..then we see that more traditional criticisms tike about his concept affective position ;or ethics approach .after this time the moderns analyses has switching the methods of work for a news information, and proposing some conventions like: deviations stylistics , lexical density ,sensibility built a good rulers, and intentionality of" style" in literary discourse.

المنارة للاستشارات
www.

المنارة للاستشارات

www.

توطئة:

إنّ مـن متطلبـات البحـوث الأكاديميـة المعـاصرة سـعي الباحـث الأكاديمـي إلى تتبـع خصائـص وتطـور الحـركات النقديـة الحديثـة والمعـاصرة ، والتـي تحـاول جاهـدة بعـث روح جديـدة و متطلعـة إلى التجديـد ولـو مـن خـلال القفـز عـلى الأسـس أو القواعـد الأوليـة والبسـيطة في كيفيـات الإبـداع و مقارباتـه المتنوعـة أومـن خـلال كـسر الحواجـز الفكريـة والثقافيـة والفلسـفية التـي تميّـز كل أمّـة مـن الأمـم , لتنصهـر هـذه الأطروحـات في بوتقـة واحـدة وغايـة واحـدة ؛ وهـي الطـرق العلمـي الموضوعي للأشـياء مـهما كانـت خصوصياته ، والـبدائل التـي تطرحهـا , وفي ظـل هـذا التوجـه الـجديد يسـعى أشـهر النقـاد الغـربيين (المـدارس النقديـة الأوروبيـة والأمريكيـة) إلى توجيـه الفكـر النقـدي المتصـل بـالآداب عمومـا صـوب البحـث اللغـوي ذي البدائـل التجريديـة التـي تنـزع إلى الاختصـار والتعميـم, ومحاولـة الارتبـاط بالواقـع المـادي والملمـوس، و الابتعـاد عـن كل افـتراض وهمـي فلسـفي مُسـبق , ومـن المحـاولات العمليـة والجـادة في هـذا التوجـه مـا وسـم الفكـر الأسـلوبي الغـربي مـن تغـيرات جذريـة منـذ بدايـات القـرن المـاضي عـلى يـد طائفـة مـن اللغويـين والنقـاد انطلاقـا مـن بـروز الحركـة الشـكلانية بروسـيا(formalistes) في عشرينـات القـرن المـاضي إلى آخـر نظريـات القـراءة التداوليـة المعـاصرة عنـد التيـار البراغـماتي مـرورا

المنارة للاستشارات
www.

بجهود اللغوي (فردينالد دو سوسير) وعالم الأسلوب (شارل بايي), وطائفة من علماء اللغة والنقد الحداثي من أمثال: (رومان ياكبسون , وميشال ريفاتير، و أندري مارتني، وليونارد بلومفيلد ورولان بارط ، وجاك دريدا ، ونعوم تشومسكي، وغيرهم كثير.....)، وهي جهود وأفكار ساهمت في إرساء دعائم نقد موضوعي جديد يسعى إلى النظرة الشمولية, والعلمية المختصرة لطبيعة وتكوين الخطاب الأدبي المعاصر يستمد شرعيته العلمية والفنية معا من تكامل عوامل اللغة, وكماليات الأسلوب كما يسعى هذا النقد الجديد إلى ترسيم استراتيجيات المقاربة النقدية المعاصرة في ظل مبدأ المحايثة مع مبدأ المزاوجة بين (اللغوي /الأسلوبي)، وهو تيار فكري وفني عارم ووافد انعكست آثاره على النقد العربي الحديث إدراكا وممارسة من قبيل التقليد والافتنان، أومن قبيل روح التجديد ومسايرة العصر.

و لا يمكننا في هذا الإطار أن نغفل عن المساهمات التجديدية الأولى التي قدمها العرب الأوائل من لغويين ونقاد من مبدعين أعلام من أمثال: أبي تمام، والبحتري ....أو من نقاد أفذاذ كالجرجاني والجاحظ ...تأصيلا وتجديدا في مجال الإبداع والنقد ، وما حاول المحدثون تقديمه لهذا التراث الأدبي واللغوي الضخم من إسهامات جادة ودقيقة رغم خصوصيات هذا التراث الثقافية والدينية والأدبية، والتي سايرته لقرون عدّة .

وسنحاول في هذا البحث مناقشة الأسس اللغوية والأسلوبية التي تشتغل وفق كيفيات خاصة ضمن ما يعرف بالخطاب الأدبي المعاصر، من خلال التعرض إلى المعطيات الأساسية له, وهي : الخطاب والنص ، واللغة ، والبلاغة ، وعلاقاتها المختلفة بالأسلوب لرصد الصورة الجديدة للظاهرة الأدبية لغويا وأسلوبيا في الفكر النقدي الحديث .

المنارة للاستشارات
www.

القضية:

تسعى التوجهات النقدية الحديثة إلى إعادة تشكيل بعض المفاهيم والمعطيات الأولية في مجال

النقد والتحليل ، وفق منظور جديد، يؤسس لقواعد صلبة تنطلق منها كل ممارسة أدبية أو لغوية

ذات وجهة علمية مضبوطة، ومن المفاهيم أو الجدليات التي ناقشتها :

جدلية الخطاب والنص :

أقرَّ رواد النقد الحديث بأنّ الدخول إلى عالم الخطاب أو النص أو الرسالة اللغوية، هو مغامرة

وفتح كبير للقارئ العمدة (المثالي) في سعيه للقبض على شعرية هذا العمل المحفوف بالخفايا والمفاجآت وكشفها للمتلقي، فالناقد المتمكن في رأي المحدثين فارس يقتحم أغوار العمل الأدبي متلقيا وناقدا ، ومتسلحا بعدّة وعتاد، ولاشك أنّ للناقد العربي عتاد قديم تراثي ، وبعضه حديث ((فالنحو والصرف والبلاغة، وكل ذلك ساعدنا على كشف أسرار هذا العمل وفهم دلالته،كما ساعدتنا الأطروحات اللسانية والنقدية على مواصلة هذا الكشف بالتفكيك و التشريح بصرامة حتى أدركنا المكونات اللغوية الكامنة)) (1)، وبذلك تتضح أهمية الميدان أو المساحة التي يخوض فيها الناقد هذا الجهد، فمن خلال الخطاب أو النص المتميز ينطلق العمل ، ويبرز أهم مكون أو أساس بشرط توافر جانب الخَطابيّة أو التواصُليّة, وهي خاصية أساسية لكل كلام (2)

المنارة للاستشارات
www.

وقد خصَّ اللغوي و الأسلوبي(ميشال ريفاتير)الخطاب/ النص الأدبي بأهمية في محض وصفه بـ ((ضرب من التواصل وجنس من الأخبار لا يختلف عن صنوف الخطاب الأخرى إلا لما يركب فيه صاحبه من خصائص شكلية تفعل في المتلقي فعلا يقرره الكاتب مسبقا)) (3).

كما اختلف النقاد و الأسلوبيون العرب في تفسير ماهية الخطاب الأدبي، بوصفه إنجازا لغويا فريدا من نوعه، كما اختلفوا في تحديد علاقته بالنص ، وإذا عرجنا إلى تراثنا العربي القديم نلحظ اهتمام القدامى بطرق هذا الميدان ومنهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما ساقه ابن منظور (630 ـ 711 هـ) في معجم لسان العرب بـ ((...يُقال :الخِطابُ والمخاطبةُ مراجعة الكلام، وقد خاطبه الكلام مخاطبةً وخطابا، وهما يتخاطبان ....ويُقال :الخُطبةُ مثل الرسالة التي لها أول وآخر ....ورجلٌ خطيبٌ حَسنُ الخطبةِ، وجمعُ الخطيب خطباءُ..)) (4)، كما نجد بنفس المصدر كلاما عن النّص إذ يقول ((...النّصُ رفعك الشيء،ونصّ الحديث ينُصّهُ نصًا رَفعَهُ وكل ما أظهر قد نُصَّ ...ويقال نصَّ الحديثَ إلى فلان أي رفعهُ،وكذلك نصَصْتهُ إليه..)) (5) ومن هنا يتضح أنّ مصطلح (النصّ) يقترن عند ابن منظور بالنقل أو الرفع، مما يقتضي التزام الأمانة العلمية في نقله، كما يوحي هذا المعنى بالتواصل في جمعه وروايته،في مقابل مصطلح (الخطاب) الذي ارتبط في ذهن ابن منظور بالكلام عامةً مشفوها أو مكتوبا، فمفهوم الخطاب لدى ابن منظور يطابق ما ذهب إليه اللسانيون المحدثون في اعتبار الخطاب معادلا للكلام رغم الاختلافات الطفيفة بينهم في التفريق أو الجمع بين مفهومي الخطاب والنص، وأبرزها :

ـ يرى رومان ياكبسون(1896ـ1982م) أنّ الخطاب عبارة عن منطوق شفهي أو عبارة شفوية في مقابل النصّ، لأنّ الخطاب لديه بمثابة الحدث الأول (6).

المنارة للاستشارات
www.

- يـرى زليـخ هاريـس(1909ـ 1992م)أنّ الخطـاب وحـدة لغويـة ينتجهـا البـاث المتكلـم تتجـاوز أبعـاد الجملـة أو الرسـالة .

- لـدى إميـل بنفينسـت (1876ـ 1902م)الخطـاب وحـدة لغويـة تفـوق الجملـة وتولـد مـن لغـة جماعيـة .

- في مفهـوم المدرسـة الفرنسـية الخطـاب يقابـل مفهـوم الملفـوظ ، والـنظر إلى النـصّ بوصفـه بناءً لغويا يجعـل منـه ملفوظا، أمّا البحث في ظـروف إنتاجـه وشروطـه فإنـه يجعـل منـه خطابـاً.

- عنـد تازفيـان تـودوروف (1939ـ؟.م) الخطـاب نظـير بنيـوي لمفهـوم الوظيفـة في اسـتعمال اللغـة (7)

أمّـا مـن أشـهر اللغويـين والنقـاد الذيـن لا يـرون فرقـا شاسـعا بـينهما بـل تداخـلا كبـيرا بـين النـصّ والخطـاب، عـالم اللغـة فردينالـد دي سوسـيرى (1857 ـ913 1م) الـذي يـرى أنّ النـصّ هـو قـول يحـدد بمكوناتـه الكلاميـة عـن طريـق التلفـظ، وعـلى هـذا المنـوال سـار لويـس هالمسـلايف (1889 ـ1965) الـذي لا يفـرق بينهـما بـل هـما مترادفـان (8)، ورولان بـارط(1915ـ 1980م)، وغـيره ممـن أحـسوا بعلاقـة التشـابه والتـماس بـين النـص والخطـاب، بـشرط أن يكـون ممارسـة دلاليـة خصبـة وعمليـة يتـم فيهـا إنتاجـه مـن قبـل المؤلـف والقـارئ عـن طريـق تحويـل اللغـة المشـاعة إلى لغـة جديـدة بمعـان جديـدة تبعـث لـذة ومتعـة (9)، ومـن هنـا يتضـح أنّ الخطـاب هـو((..مجموعـة مـن النصـوص ذات العلاقـات المشـتركة أي أنـه تتابـع مترابـط مـن صـور الاسـتعمال النـصّي يمكـن الرجـوع إليـه في وقـت لاحـق)) (10)

فهـو إذن يشـمل النصـوص والأقـوال ذات الـنظام البنـائي، وهـو بهـذا المعنـى يكـون أوسـع مـن النـص في الإطـار المفهومـي, وتـكاد تجمـع

المنارة للاستشارات
www.

آراء النقاد على اعتبارهما بنية من القيم ، أو علامة دالة موحدة ومستقلة بذاتها ذات خصائص أسلوبية وفنية وجمالية خالصة جاهزة لغرض البحث والتنقيب.ومن خلال ابرز الجانب الجمالي فيه تبرز علاقة الخطاب الأدبي بعامل الأسلوب كمعطى قابل للنقاش الفكري والفني .

جدلية الخطاب والأسلوب:

ورد ذكر الأسلوب في معجم لسان العرب عند ابن منظور في قوله: ((...يُقال للسطر من النخيل أسلوبٌ، وكل طريق ممتد أسلوبٌ، قال والأسلوب الطريق والوجهوالمذهبُ ، يقالُ أنتم في أسلوب سوءٍ ويُجمع أساليب, والأسلوب الطريق تأخذ فيه ...يقالُ أخذ فلانٌ في أساليب من القول أي أفانين منه ...))(11)، فالأسلوب بالمعنى المادي يعني الاستقامة والامتداد, أمّا بالمعنى المجرد فهو التفرد والتميّز، ويمكننا أن نستفيد من استقراء أجراه الدكتور شكري عيّاد لكلمة (أسلوب) في كتابات البلاغيين العرب القدامى من أقطاب علم الكلام , إذ توصل إلى نتيجة مفادها أنّ مفهوم كلمة(أسلوب) قد بقي عندهم مبهم المعنى تشرئب لمنزلة المصطلح من دون أن يبلغه لأنهم أشاروا به إلى مفاهيم عدّة منها النوع الأدبي، الموضوع، الصياغة (12)، أمّا في التراث الغربي فترجع كلمة (style) إلى اللفظ الإغريقي (stylus) معنى الريشة أوآلة مستدقة الرأس تستعمل للكتابة ثم حدث أن خلعت الآلة اسمها على نوع من الوظائف التي تقوم بها(13)، وإذا راجعنا التراث الغربي والعربي معًا لتفحص أي نظرة موضوعية لمفهوم الأسلوب فإننا نكتشف أن نظرية الأسلوب لم تتجسد في البداية إلا من خلال الكلام عن البلاغة القديمة(rhétorique)، وفيما بعد عند الكلام عن نظرية الإيصال أو التخاطب(communication) التي أقيمت على ثلاثة دعائم أساسية؛ وهي المُخاطِب، والمُخاطَب،

المنارة للاستشارات
www.

والخِطـاب دون الأسـلوب كظاهـرة أساسـية (14)، وفي بدايـات القـرن المـاضي وعنـد حديـث اللسـانيين الغربيـين عـن اللغـة وتفريقهـم بـين اللغـة(langage)، والـكلام(parole) ، تفطـن (شـارل بـالي) ومـن قبلـه أسـتـاذه (دي سوسـير) إلى حالتـي اللغـة عنـد السـكون ؛ أي في وجودهـا الذهــني المجـرد كقواعـد شـكلية ووحـدات لغويـة معزولـة، وعنـد الحركـة حينـما تخـرج مـن أطرهـا الشـكلية الراكـدة إلى ميدان الاسـتعمال الوظيفـي والإخبـاري بمـا تحويـه مـن تلـك القواعـد والوحـدات (15)، مـما ينطـوي عـلى تبايـن كبـير بـين الحالتـين مـن جهـة، وبـين الأوجـه المختلفـة لهـذا الاسـتعمال في الحالـة الثـانية, فالأسـلوب عنـد (شـارل بـالي) يـبرز مـن خـلال ذلـك الاسـتعمال الوظيفـي الثاني(الـكلام/parole) البعيـد عـن الإنشـائية الأدبيـة المقصـودة لـذاتها ، وهـو مـا يوحـي بـأن فكـرة الأسلـوب عنـد(بـالي) لـم تكـن تعنـى بالخطـاب الأدبي قـدر مـا تعنـي اللغـة الفطريـة الكلاميـة المشـحونة بالتعبـيرات العاطفيـة الكامنـة داخـل بعـض الأسـاليب التعبيريـة كالاسـتفهام والتعجـب وغيرها ، وبمـرور الوقت وتراكـم البحـوث الأسـلوبية خاصـة في اللغـة الفرنسـية انتبـه (بـالي) وبعـض تلامذتـه مـن أمثـال : جـول مـاروزو (1878 ـ 1964م) واللغـوي النمسـاوي ليـو سـبتزر(1887 ـ 1960م) إلى أنّ الخطابـات الأدبيـة هـي الأخـرى قـد تحتـوي عـلى شـحنات عاطفيـة وتعبيريـة جمّة، مـن خـلال الاختيـارات اللفظيـة, والصرفيـة, والتركيبيـة الخـاصة بهـذا الخطاب مـما يتيـح المجال واسـعا لبـروز عنـصر الأسلـوب بهـا، فترتسـم هـذه المستويات اللغويـة بمثابـة مـيادين الحقيقيـة للدراسـة الأسـلوبية المثمـرة ، بـل في مقابـل ذلـك تفطـن هـؤلاء إلى أنّ هنـالك فـرق بـين الخطـاب اليومـي العـادي الـذي يجنـح إلى التكـرار في أنسـاقه, وألفاظـه, وتوظيـف المنطـق العقـلي مـما لا يتيـح لصاحبـه التغيـير والتنويـع في أساليب الخطـاب، قصـد التبـادل النفعـي لا غـير، وبـين الخطـاب الأدبي أو خطـاب الأسـلوب الـذي يرمـي إلى التعبـير الخـاص والـفريد في أنسـاقه

المنارة للاستشارات
www.

وألـفاظه ، قصـد التبـادل الشـعوري، والعاطفـي، والوجـداني، والمعـرفي، وفي كل ذلـك يتـم إيصـال الفكـرة مهـما كانـت فائدتهـا بصـورة مخالفـة لطـرق التعبـير والتبليـغ الشـائعة بـين المتخاطبـين ،فتضفـى الجـدّة في الطـرح والفـرادة في الأسـلوب، وبذلـك أسـتطاع الخطـاب الأدبي أنّ يسـتأثر بالأسـلوب، وأن ينصـب نفسـه ناطقـا باسـمه دون أنـواع الخطابـات الاتصاليـة الأخـرى , وهـو في المحصلـة مـا فتـح المجـال واسـعا إلى ظهـور عـلم الأسـلوب أو الأسـلوبية الحديثة(stylistique)، لتي حاولت وبشتى مناهجهـا احتـواء ميـدان الدراسـة الجماليـة /الموضوعيـة للخطـاب الأدبي ((...بتفحـص أدواتـه وأنـواع تشـكيلاته الفنيـة ، وهـي تتميـز عـن بقيـة المناهـج النصيّـة بتناولهـا الخطـاب الأدبي، بوصفـه رسـالة لغويـة قبـل كل شيء، فتحـاول تفحـص نسـيجه اللغـوي، وترمـي إلى تمكـين القـارئ مـن إدراك انتظـام خصائـص الأسـلوب الفنـي إدراكـا نقديـا مـع الوعـي بمـا تحققـه تلـك الخصائـص مـن غايـات وظائفيـة)) (16). وهـذا بمنظـور الأسـلوبية التـي تـرى في الخطـاب الأدبي ميـدان الأسـلوب دون غـيره ؛ أي بالتركيـز عـلى دعامـة الرسـالة اللغويـة مفصولـة عـن طرفيهـا (المخاطِـب/ المخاطَـب)، وهنـا يمثـل الأسـلوب في شـكله المـادي؛ إذ يـدور البحـث فيـه حـول العلاقـة الوطيـدة بـين الأسـلوب والموضـوع الممثـل فـيه، ويمثـل هـذا الاتجـاه الأسـلوبية الوظيفيـة القائمـة عـلى الـتداولية، وهـي أقـرب اتجـاه مـحاكاتي للأسـلوب المـادي، إذ تنظـر إلى القيمـة الأسـلوبية التـي تتضمنهـا السـمّة اللغويـة اسـتنادا إلى الـبيئة والموقـف الـذي أنشـئ فيـه الـخطاب، ومـا عـلى المحلـل الأسـلوبي إلا تنـاول الوحـدات اللغوية كلـها بوصفهـا متضمنـة سـمات أسـلوبية، فيـدرس علاقـات هـذه الوحـدات ببيئتهـا وسـياقها (17) وهـو مـا يـشر عـلى أهميـة العنـصر اللغـوي بشـتى مسـتوياته ووحداتـه وعلاقتـه بالجانـب الأسـلوبي كـضرورة قصـوى في للخطـاب الأدبي .

المنارة للاستشارات
www.

جدلية اللغة والأسلوب:

إنّ اهتمام اللسانيين بموضوع اللغة ومستوياتها في بداية القرن العشرين أوعز إلى النقاد الأسلوبيين بضرورة الالتفاف من حول لغة الخطاب الأدبي، ودراسة مستوياتها دراسة أسلوبية موضوعية ووصفية، فتحول نظر هؤلاء النقاد إلى الخطاب الأدبي من النظرة النقدية القديمة القائمة على أسس ذوقية وانطباعية ذاتية مُسبقة إلى نظرة موضوعية، وصفية متشبثةٌ، ولصيقة بالواقع اللغوي للخطاب ومعطياته الأسلوبية ، وبذلك يتم للمحلل الأسلوبي المتمكن الولوج إلى هذا الميدان بآليات لسانية مختلفة متخذا من اللغة النصية الوسيلة والغاية معا وفق مستويات معينة قصد إبراز الغاية الشعرية المنشودة في مثل هذه الخطابات الأدبية ذات المستوى اللغوي المتميّز، ومن هنا يتشابك العمل اللغوي اللساني مع العمل اللغوي الأسلوبي، ويتقاطعان في مقوم اللغة ، فمن خلال معطيات اللغة نفسها وبآليات لسانية بحتة يتناول الناقد اللغوي/ الأسلوبي وسيلة اللغة قصدا الأسلوب، فيغدو الأسلوب من طبيعة اللغة نفسها ((..والأسلوب ـ مهما تباينت وجهات النظر إليه ـ لا يمكن تنحيته عن اللغة وكذا الخطاب الأدبي، فهو عموما رسالة لغوية موجهة من المنشئ إلى المتلقي يُستخدم فيها نظام لغوي مشترك، ويقتضي ذلك أن يكون كل من المنشئ والمتلقي على علم بمجموعة الأنماط والعلاقات الصوتية, والصرفية، والنحوية، والدلالية التي تكون هذا النظام)) (18).

ولقد نظر الأسلوبيون إلى الأسلوب وعلاقته باللغة من خلال عدّة تحديدات نجملها في الآتي(19) :

المنارة للاستشارات
www.

ـ ذهب فريق منهم إلى أنّ اللغة مؤلفة من قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير بها عن المعنى، والأسلوب عبارة عن اختيار يقوم به المنشئ لسمات لغوية خاصة .

ـ وذهب آخرون إلى الاهتمام بما يتولد عن الخطاب من أثر في متلقيه، وعندهم أنّ الكلام

أو اللغة تعبير ، والأسلوب هو قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارئ .

ـ وآخرون عرّفوا الأسلوب وقصروه على العدول عن النمط المعياري (من اللغة) إلى النمط

الآخر مع تماثل السياق في كل منهما.

ـ وآخرون أقروا بوجود تعبير لغوي محايد لا يتسم بأية سمة أسلوبية، فيكون الأسلوب إضافة

إلى ذلك التعبير ، تنحو به منحى خاصاً موافقا للسياق ، ثم يقوم البحث الأسلوبي بتجريد

العبارة من سماتها الأسلوبية ، للتوصل إلى الجوهر المحايد .

ـ وفرقة أخرى تذهب إلى أنّ كل سمة لغوية تتضمن قيمة أسلوبية معينة ، وأنّ السّمة اللغوية

تستمد قيمتها الأسلوبية من بيئة الخطاب أو الموقف الذي قيل فيه الأسلوب، فالأسلوب هنا

هو أن يتضمن التعبير قيمة قابلة للتغيير بتغيير البيئة والموقف.

المنارة للاستشارات
www.

فخطاب اللغة بمنظور النقد الحديث لا يعدو أن يكون خطابا للأسلوب لأنه يقوم على توظيف فريد للغة, أي لغة كانت ، والأسلوب هو وسيلة تتجدد به اللغة، و تحيا من جديد لتساير مبدأ التزامن (synchronique) الذي يفرضه البحث اللساني كحالة ظرفية وصفية ضرورية للدراسة الموضوعية، فإذا كان الخطاب الأدبي عند (رومان ياكبسون)، هو خطاب سيطرت عليه الوظيفة الشعرية، فلا مُراء أن تتشبث هذه الشعرية المنشودة ـ عند ميشال ريفاتير ـ بالأسلوب وتنهل منه، ذلك الأسلوب الذي يقوم على معرفة القوانين اللغوية المجردة التي تصنع قراءة هذا الحدث الأدبي (الخطاب الأدبي) قراءة مخالفة لمعطيات الواقع اللغوي والكامن داخل كل لغة (20).

خطاب الأسلوب واللغة المعيارية:

من المفاهيم الثابتة والتي تقوم عليها أي لغة هو ارتكازها على بعض المستويات وبعض العلوم المعيارية التي تساهم في الحفاظ على أسسها ودوامها في شكلها السكوني القار داخل أذهان المتكلمين أو مستخدمي اللغة، ومن أهم الثوابت التي تنعقد عليها اللغة :ثابت النحو(grammaire)، وثابت البلاغة(rhétorique), وهما ركيزتان هامتان في تشكيل عنصر الأسلوب، والحفاظ على استقرار اللغة ضمن ضوابط لغوية وتصويرية معينة.

أ ـ الأسلوب والنحو:

لا يمكننا في هذا الموقف الحديث عن علاقة الأسلوب بالنحو إلا إذا قصرنا مفهوم الجدّة الأسلوبية

في حرية الاختيار المتاحة للمبدع بالتصرف في البنيات النحوية التركيبية لأنساق اللغة الأسلوبية الموظفة للموقف، والتي تتيح

المنارة للاستشارات
www.

إمكانات تعبيرية جديدة، فكما أنّ للمبدع الحرية شبه المطلقة في اختيار الوحدات اللغوية اختيارا معجميا ودلالياً ، فالحرية في التركيب تقل وتضمر جراء ضغط قواعد التركيب على المبدع، ولقد أشار عبد القاهر الجرجاني(ت471 هـ) في نظرية النظم إلى هذا الموضوع بتأكيده على احترام قوانين النحو العربي، وعدم خرق قواعده الأصولية الثابتة ضمن مستوى التركيب لئلا يفسد الأسلوب بفساده، بل ألح على وجوب أخذ كل الإمكانات التركيبية التي تتيحها اللغة العربية لمستعمليها المبدعين، إذ ينقل لنا ضمنيا الفرق بين (أصول النحو)؛ والتي هي قوانين التركيب التي يحصرها في مدخل كتابه (دلائل الإعجاز) ، وبين (علم النحو) الذي يحاول أن يرسي قواعده، وبذلك تنتمي أصول النحو إلى مجال قوانين اللغة، أمّا علم النحو (أو النظم) فهو الذي يحصر الخصائص الفنية أو الأدبية في الكلام شعرا أو نثراً(21).

إنّ من أهم النظريات الحديثة التي أعطت تفسيرا واصفا، ـ وموضوعيا للتركيب الأسلوبي في الإبداع اللغوي ما طرحته نظرية النحو التوليدي عند اللغوي نعوم تشومسكي (1928 ـ ...) في أطروحاته اللغوية وقواعده التوليدية التحويلية للبنى العميقة والسطحية، بتبيين آليات التركيب المختلفة من ترتيب، وزيادة، وحذف، وغيرها... تكشف وتصف حركية الإبداع وطاقاتها في الاختيار (22) ومن هنا نجد أنّ ضغط النحو على عنصر الأسلوب قدر محتوم لا يمكن إغفاله في أي ممارسة نقدية، وقد يكون هذا الضغط عامل فعّال وضروري في تحديد المعيار التركيبي الذي يُحدد على أساسه أي انحراف بمثابة أسلوب جديد عند أصحاب نظرية الانحراف الأسلوبي وأشهرهم(ليو سبتزر)، ورغم هذه الحرية النسبيّة عند المبدع في اختيار إمكانات

المنارة للاستشارات
www.

تركيبية أسلوبية جديدة لم يعرفها النحو الأصولي، فإنّ علم النحو الوظيفي يتيح بدوره للمبدع اختيار إمكانات تركيبية معقولة تدخل في إطار التوظيف اللغوي الخاص، أو التنضيد البلاغي وأغراضه الجمالية المختلفة مراعاة للموقف والمقام، و بها يستطيع المبدع أن يقدم المعنى بطرق مختلفة في الوضوح والخفاء، في الزيادة أو النقص لتوليد جمل نحوية/أسلوبية جديدة ومتفرّدة، لهذا يرى الأسلوبين ((...أنّ اكتشاف أسرار التركيب اللغوية, والوقوف على دلالتها من خلال تحديد صلتها ببعضها البعض من أخطر الوظائف التي يضطلع بها التحليل الأسلوبي،الذي يعمل في اتجاه كشف التحولات التي يحدثها المبدع في تلك التراكيب، وتحديد الخصائص الفنية التي ترفعها فوق مستوى الكلام العادي ، كما يكشف كذلك عن القوانين الجمالية التي ولدتها ،والأسباب التي دفعت المبدع إلى اختيارها وتفضيلها على التراكيب التي تشترك معها في هالة دلالية واحدة ، وتدور في فلكها.)) (23) .

ب ـ الأسلوب والبلاغة:

لا يمكننا في هذا الموقف أيضا أن نُغفل ضغط البلاغة القديمة على البحث الأسلوبي الحديث وخاصة العربي منه، نظرا لارتباط مفهوم الأسلوب العربي بالبحث البلاغي القديم، ورغم المحاولات الكثيرة من لدن الباحثين العرب المحدثين لفصل البحث البلاغي عن الحركة النقدية الحديثة في تعرية مفهوم الأسلوب وتجديده، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر محاولة الأستاذ أحمد الشايب في كتابه (الأسلوب) ، وهي من المحاولات الأولى في تجديد مفهوم النقد الحديث للأسلوب في محض دعوته إلى الثورة على البلاغة القديمة، وأحكامها القسرية، وهو رغم ذلك لم يستطع الانفلات من طوق

المنارة للاستشارات
www.

البحث البلاغي، كما ظل طابعها العام مسيطرا عليه، ولعل آلية الفهم التي استعملها الشايب لمعرفة كنه الأسلوب، والكشف عن ماهيته هي ذاتها التي تعارف عليها العرب القدامى (24) هؤلاء العرب الذين أسهموا في مناقشة مسائل بلاغية وأسلوبية عديدة، هي من صميم البحث الأسلوبي الحديث، ولكن ذلك كله لم يكن هدفا في ذاته بقدر ما كان وسيلة لبلورة نواحي جمالية قيميّة في اللغة العربية، أو إبراز مناحي إعجازية (لسانية ،وأدبية، وبلاغية) في النص القرآني (25)، وإذا كانت البلاغة العربية عندهم من العلوم التي أوكلت لها المراقبة و الاختيار والحرص على معايير، وقوانين التأليف، وفنون التعبير ،فإنّها عند المحدثين من العرب والغربيين قبلهم من العلوم القديمة التي أسهمت في ظهور علم الأسلوب، وأمدته بأسباب وجوده ووضعت لبناته الأساسية (26)، لكنها لا تعدوا أن تكون بديلا في غير عصره وأوانه، فاتهمت عند الكثير منهم بالجمود والقصور وعدم مواكبة الحركة الإبداعية الراهنة، ومن أبرز الغربيين الذين تبنوا هذا الحكم الناقد الفرنسي (رولان بارط) الذي يصفها ـ أي البلاغة ـ بالكلام عن الكلام، أو حديث اللغة عن نفسها (27)، ومن العرب المحدثين من أمثال: عبد السلام المسدي ، وصلاح فضل, وشكري عياد ثم أحمد درويش الذي اتهم البلاغة بالقصور عن تلبية حاجات الأجناس الأدبية التي ينتجها الأدب العربي المعاصر؛ كالشعر الحديث، والقصة، والرواية (28)، إلا أنهم وفي مواقف مغايرة نسبيًا لم يغفلوا فضل البلاغة، ودورها في وضع أسس علم الأسلوب، فهذا (رولان بارط) يقرّ بفضل البلاغة القديمة في بلورة بعض الأشكال البلاغية، وتبنيها للأسلوب، كما يرى بعض الباحثين العرب أنّ الأسلوبية الحديثة لا تنال من التراث البلاغي شيئا، إذ هو فيه بعض ما فيها، ومن ثم تطلع هؤلاء إلى البلاغة

المنارة للاستشارات
www.

القديمة برؤى جديدة تؤصل لمنهجيتها الرحبة في ضوء هذا الرافد الجديد والحقيقة - كما يراها آخرون - أنّ الأسلوبية أخذت موضعا متميزا إلى حد كبير على المستولى التنظيري ، في حين لم يتحقق لها ذلك الجانب التطبيقي الذي زخرت به البلاغة القديمة ((وإن كان ثمة تجارب جادّة ثرية ولكن هناك تطبيقات متواضعة لم تأخذ من التحليل الأسلوبي سوى أسمه وبعض مظاهره من منطلق اللحاق بالجديد ليس إلا...)) (29).

خطاب الأسلوب واللغة الوصفية:

أماّ من أهم المفاهيم المستجدّة، والتي ساعدت على النظر إلى اللغة نظرة وصفيّة، وموضوعية تخرجها من قالبها السكوني إلى القالب الوظيفي الإستعمالي مفهوم الانزياح (lècart)؛ أو العدول اللغوي الجمالي عن المعيار الذي فرضته اللغة الوصفية, وهو مبدأ شكلي جمالي يرتبط بالخطاب الأدبي, ومفهوم الحَدْس (conjoncture)؛ أو القدرة والبراعة النقدية عند الناقد الأسلوبي في تلقف الظاهرة اللغوية ضمن الخطاب الإبداعي، وهما حصيلتان أو ثمرتان من ثمرات الجهد الأسلوبي الحديث كفيلتان - عند بعض الأسلوبين - في التفريق بين اللغة المعيارية الواقعة تحت ضغط النحو والبلاغة، واللغة الوصفية الواقعة تحت ضغط وفرضيات الواقع الإبداعي السائد .

أ - الأسلوب والانزياح:

فالانزياح أو العدول من المفاهيم النقدية الحديثة التي ارتبطت بالحركة الإبداعية والنقدية في مجال علم الأسلوب، وبوساطته تفسر بعض الظواهر اللغوية الجامحة عن النمط السائد والمألوف، ويعرف

المنارة للاستشارات
www.

الانزياح على أنّه ((انحراف الكلام عن نسقه المألوف، وهو حدث لغوي يظهر في تشكيل الكلام وصياغته، ويمكن بوساطته التعرف إلى طبيعة الأسلوب الأدبي، بل يمكن اعتبار الانزياح، هو الأسلوب الأدبي ذاته)) (30).

إنّ اكتشاف الانزياح في الخطاب اللغوي يشكل جانبا مهماً من جهد الناقد لاستكشاف الممتع الذي يخرق أفق الانتظار(latente déçue)، ويمكنه من رصد الحالات الذهنيّة وفاعليتها في إحداث الجديد في لغة الأدب لأن((..الإثارة الذهنيّة ـ فيما يقوله سبتزر ـ التي تنحرف عن المعتاد القياسي في حياتنا الذهنيّة لا بد وأن يكون لها انحراف لغوي مرافق عن الاستعمال العادي)) (31) ويرى المتتبعون للحركة الأسلوبية أنّ مفهوم الانزياح من المفاهيم الرئيسة التي أثرت البحث الأسلوبي، ففي ضوئه يمكن إعادة وصف الكثير من التحليلات البلاغيّة وفي التراث العربي القديم نفسه مسارب لمفهوم الانزياح (العدول)، وعلى الرغم من عدم استخدام هذا المصطلح، أو تحليل مكوناته إلا أنّ ذلك لم يمنع من الإحساس الطبيعي بالفارق بين أسلوب وآخر؛ ففي الدراسة القرآنية إجماع على أنّ أسلوب القرآن خارج عن المألوف من كلام البشر، أمّا في الدراسة البلاغيّة العربيّة فإنّ آراء البلاغيين التي تندرج تحت الانزياح يمكن أن تنحصر في ثلاثة محاور وهي (32):

ـ التبديل أو تغيير الموقع ؛ومن ذلك التقديم والتأخير، والقلب أو العكس.

ـ الحذف أو إسقاط عنصر من عناصر الغرض البلاغي.

ـ الزيادة أو إضافة في وحدة لغوية لغرض بلاغي آخر.

المنارة للاستشارات
www.

فهذه المظاهر وغيرها تعدّ من وجوه وحالات الانزياح ذات الأبعاد الجماليّة أو البلاغيّة الخاصة التي تنحرف عن النمط اللغوي الثابت.

يلجأ الأسلوبيون - عادةً - في رصد مفهوم الانزياح، والتعرف عليه دون الخروقات الأخرى من خلال وضع بعض الضوابط التقنية التي تمكنهم من ضبطه وتحديد قيّمه الجمالية، ومنها:

- التعرف الحقيقي على السياق الأدبي والثقافي للخطاب موضوع التحليل، ومن ثمّة تحديد كل الخروقات اللغوية البارزة فيه، ودراستها على أساس انزياحات ذات أبعاد جماليّة.

- عدم تسليط أي انطباعات وأطروحات نقدية حديثة على خطابات قديمة لئلا يقع الناقد في خطأ الإضافة للشيء الجديد على القديم.

- عدم إغفال أي انحراف أسلوبي لأي وحدة لغويّة مهما كانت بسيطة، وتتبع وجوهها وتطورها في إطارها اللغوي والثقافي.

- التركيز على الإنزياحات اللغوية المفاجأة وغير المتكررة (العفوية)، لما لها من أهميّة قصوى أثناء التحليل، فيها يتم الوصول إلى التشبع الأسلوبي لدى المتلقي.

- التفريق في الأهميّة بين الإنزياحات الأسلوبيّة الخاصة (الفردية)، و الإنزياحات الأسلوبيّة العامة التي يكتب لها الدوام والشيوع، فتغدو بمرور الزمن قاعدة أسلوبية تميز اتجاه أو مدرسة خاصة ولو من قبيل الخطأ الشائع

- مراعاة أبعاد أي انزياح أسلوبي (نفسيّة /فنيّة / فكريّة)، ورصد علاقاته المختلفة بأنساق الخطاب ومستوياته لتحقيق شمولية

المنارة للاستشارات
www.

الطـرح، و الابتعـاد عـن طابـع التجـزيء أو الفصـل الـذي اتسـمت بـه البلاغـة القديمـة .

ب ـ الأسلوب والحَدْس:

تشـترط بعـض الاتجاهـات الأسـلوبيّة الحديثـة؛ ومنهـا الاتجـاه النفسي عـند(ليـو سـبتزر) توافـر الناقـد الأسـلوبي عـلى بعـض القـدرات الذاتيـة، وأهمهـا الحـدس النقـدي، أو الـذكاء الفطـري في تلقـف الظاهـرة الأسـلوبيّة، والتفطـن لهـا مهـما كانـت بسـاطتها أو درجـة تمويههـا بالخطـاب الأدبي، ولا يمكـن لهـذه القـدرة أن تتوافـر إلا في القلـة مـن النقـاد العُمـد (المثاليـون) ، فـإذا أقررنـا أنّ اللغـة مهـما كانـت ليسـت نظامًـا هندسـياً محكـماً ولـو كانـت كذلـك لتوقفـت الحيـاة وخلـت مـن الإبـداع ، ومـا مـن لغـة إلا وفيهـا فجـوات ومخالفـات، فإننـا نقـرر مـن جانـب آخـر أنّ مقاييـس النقـاد تختلـف مـن فـرد إلى آخـر، فـإذا سـلمنا بـأنّ هنـاك مقاييـس عامـة في اللغـة عنـد طائفـة كـبرى مـن النقـاد، فـإنّ بعضهـم يمتلـك مقاييـس خاصـة يتوصـل إلـيها مـن طريـق الحـدس, ولقـد أكـد سـيبويه(ت180 هــ) نفسـه هـذا المعنـى في التفريـق بـين قيـاس النحويـين وقـياس أصحـاب اللغـة ((...بـل نجـده يـجنح لأصحاب اللغـة مُبينـاً أنّ قـياسهم ـ وإن لم يصرحـوا بـه ـ أسـلم من قيـاس النحويين وذلـك في بـاب إضـمار المفعولـين اللذيـن تعـدّى إليهـما فعـل الفاعـل..)) (33) ومنـه فالحـدس في نظريـة الأسـلوب يعـدّ مـن قبـل المقاييـس الخاصـة لـدى الناقـد المتمكـن ، ولقـد أشـاد اللغـوي النمسـاوي (ليـو سـبتزر) بهـذه القـدرة وعزاهـا إلى التـذوق الشـخصي، فهـو يحـدد نظـام التحليـل بمـا يسـميه (منهـج الدائـرة الفيلولوجيّـة)؛ إذ تبتـدئ هـذه الدائـرة بالقـارئ الـذي يتأمـل الخطـاب كـما يصـل إلى شيء في لغتـه يلفـت نظـره وانتباهـه مـن طريـق الحـدس، ثـم يتأمـل هـذا اللافـت

المنارة للاستشارات
www.

للنظـر عـبر قـراءة جديـدة مدعمـة بشـواهد أسـلوبيّة أخـرى تكـون بمثابـة الجزئيـات التـي تدعـم الـكل ؛ أي تدعـم مـا يتوصـل إليـه عـبر الحـدْس (34)، وبذلـك يتـم للناقـد كشـف جميـع الانحرافـات الأسـلوبيّة البسـيطة منهـا والـمركبة ويـتـاح لـه الـكشـف عـن شـخصية الكاتـب نفسـه مـن خـلال التعاطـف المباشر مـع نصّـه وذاتـه في سـبيل تحقيـق هـدف هـذا العمـل النقـدي عـلى المسـتوى الكفـاءة والأداء.

حوصلة:

فـما مـن شـك وبعـد هـذا التحليـل والطـرح الوصفـي لموضـوع الخطـاب الأدبي المعـاصر ومكونـات ومسـتويات اللغـة و خصائـص الأسـلوب يمكننـا أنّ نحكـم جازمـين بوجـود علائـق وطيـدة ، ومتأصلـة بـين مفاهيـم، ومضامـين اللغة بـمستوييها السـكوني، والمتحـرك وموضوع ومظاهـر الأسـلوب المختلفـة عنـد النقـاد واللغويـين الأوائـل والمتأخريـن منهـم، ولا يمكننـا في هـذا المقـام إلا أن نقـرّ بالجهـد الـذي قدمـه العـرب الأوائـل عـلى المسـتوى التقعيـدي ، والتأسـيسي لمفهـوم الأسـلوب في ظـل البلاغـة العربيّـة , و ترسـيم معالمـه الأولى رغـم ضغـوط الوسـط الثقـافي والأدبي واللغـوي، كـما لا نغفـل الجهـد الغـربي في هـذا الميدان وما أتاحـه للوسـط النقـدي عمومـا مـن أطروحـات فكريـة، ومنهجيـة سـاهمت في تحريـك وتنشـيط الفكـر النقـدي نحـو خلـق آفـاق جديـدة للبحـث الأدبي واللغـوي عمومـا والبحـث الأسـلوبي خصوصـاً .

الهوامش :

1 ـ رابـح بوحوش،اللسـانيات وتطبيقاتهـا عـلى الخطـاب الأدبي،دار العلـوم النـشر، الجزائـر، *2006* م،ص*24* .

2 ـ ينظر:نـور الديـن السّـد ،الأسـلوبيّة وتحليـل الخطـاب،ج*1*، دار هومة،الجزائـر،*1997* م ،ص*216* .

المنارة للاستشارات
www.

3 ـ المرجع نفسه، ص223 .

4 ـ ابـن منظور،لسـان العرب،المجلـد الأول(أ،ب) دار صـادر، ط1 ،لبنـان،1990 م,ص361.

5 ـ المصدر نفسه،المجلد السابع،ص 97 .

6 ـ ينظر:خـيرة عون،سـمياء الـسرد والخطـاب، مجلـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة،ع6 ،جامعـة باتنـة، الجزائـر،2000 م ، ص 46 .

7 ـ ينظـر: فرحـات بـدري الحربي،الأسـلوبية في النقـد العـربي الحديـث، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات ،ط1 ،لبنـان،2003 م، ص 39 ـ 40 .

8 ـ ينظر: المرجع السابق، ص 40 .

9 ـ ينظر:نور الدين السّدّ الأسلوبية وتحليل الخطاب،ج2 ،ص 31 .

10 ـ بوجرانـد ،النـص والخطـاب والإجـراء،(ت) تمـام حّسـان,عالم الكتـب، ط1 ، مـصر،1998 م،(مقدمـة المترجـم).

11 ـ ابن منظور،لسان العرب، مج الأول،مادة (سلب)، ص 473 .

12 ـ ينظـر: شـكري عيّـاد، مبـادئ علـم الأسـلوب، انترناسـيونال بـرس، ط1 ، 1988 م ، ص18 .

13 ـ ينظـر: سـتيفن أولمـان، دور الكلمـة في اللغـة ،(ت) كـمال بشر،مكتبـة الشـباب ،مـصر،1975 م ، ص163 .

14 ـ ينظـر: عبـد السـلام المسـدي ، الأسـلوبية والأسـلوب، الـدار العربيـة للكتـاب، تونـس،1977 م، ص57 .

15 ـ فتـح اللـه أحمـد سـليمان ، الأسـلوبية ، مكتبـة الآداب,مـصر، 2004 م ، ص16 .

المنارة للاستشارات
www.

16 ـ فرحات بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص15 .

17 ـ ينظر: سعد مصلوح ، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية،دار الفكر العربي،ط2 ،مصر،1984 م,ص 26 ـ 28 .

18 ـ محمد كريم الكواز ،علم الأسلوب،منشورات جامعة السابع من أبريل ،ط1 ,ليبيا،1426 هـ ،ص 57 .

19 ـ ينظر: المرجع نفسه ،ص 58 ـ 61 .

20 ـ ينظر : جمال محمد مقابلة ،الرونق في النقد العربي القديم (مقال)، عالم الفكر ،ج3 ، ع 1 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 2001 م، ص65 .

21 ـ ينظر : محمد كريم الكواز ،علم الأسلوب ، ص 25 ـ 26 .

22 ـ ينظر : عدنان حسين قاسم ، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ،ط1 ,دار ابن كثير/مؤسسة علوم القرآن ، عجمان / دمشق،1992 م، ص 192 .

23 ـ المرجع نفسه ،ص 171 ـ 172 .

24 ـ ينظر المرجع نفسه ،ص63 .

25 ـ أحمد طاهر حسنين ، الأسلوبية العربية دراسة تطبيقية،ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ،مصر ، 2000 م، ص 132 .

26 ـ جميل عبد المجيد ،بلاغة النص ، دار غريب ، مصر ، 1999 م,ص 12 .

27 ـ صلاح فضل ، علم الأسلوب ، دار الأفاق ، ط1 ، لبنان، 1985 م،ص152 .

المنارة للاستشارات
www.

28 ـ أحمـد درويـش، دراسـة الأسـلوب بـين المعـاصرة والـتراث ، دار غريب ، مـصر ، 1998 م، ص18 .

29 ـ عبـد العاطـي كيـوان ، الأسـلوبية في الخطـاب العـربي، مكتبـة النهضـة المصريـة، ط1 ، مـصر ، 2000 م، ص09 .

30 ـ نور الدين السّد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب،ج1 ، ص 179 .

31 ـ رنيـه وليـك /أوسـتن واريـن، نظريـة الأدب ،(ت)، محـي الديـن صبحي،المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنـشر، لبنـان ،1985 م، ص 189 .

32 ـ ينظر : محمد كريم الكواز ، علم الأسلوب، ص 92 .

33 ـ المرجع نفسه ،ص 39 ،نقلا عن الكتاب لسيبويه ،ج1 ، ص 383 .

34 ـ حسـن ناظـم , البنـى الأسـلوبية ،المركـز الثقـافي العـربي، ط1 ، الـدار البيضـاء /بـيروت 2002 م،ص36 .

المنارة للاستشارات
www.